مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(07)، العدد (02)، (ديسمبر-2022)، ص 499-510
ISSN:2602-5566 EISSN:2716-8999

فلسفة العيش المشترك وقبول الآخر في السيرة النبوية -وثيقة المدينة أنموذجا-

Philosophy of coexistence and acceptance of the other in the biography of the Prophet -The city document as a model-

حليمة قطاي[1]*

[1] جامعة باتنة1 (الجزائر)، "guettaihalima2020@gmail.com"

تاريخ الإرسال: 2022/07/17 **تاريخ القبول: 04 /2022/10**

ملخص:

وثيقة المدينة، أو الدستور المدني نصّ أسس له محمد النبّي البشري من أجل بناء دولة توافقية وعاصمتها يثرب، لا تقوم على مركزية الدين ولا اللغة ولا العرقية إنّما على المواطنة والعدالة بين أعراق وأجناس وديانات مختلفة؛ هذه الوثيقة التي كتبها محمد صلى الله عليه وسلم إلى ساكنة المدينة بعد الهجرة من مكة، بنيت على أسس العدل والحريات واحترام الآخر وتقبله كذات بشرية؛ الحريّة العقدية فيها مكفولة للجميع، وذلك يحصل أولا بضمان الحقوق والذمم المالية كما فعلت وراهنت عليه الوثيقة النبوية. مقرة بأن الدولة وسلمها واستقرارها لا يتحقق إلا باحترام المتمايز عن الأنا؛ هذا التقبل للآخر المختلف كنسق أو كعنصر في الجماعة المتكاملة متى فرضت ذلك حاجة النسق الأكبر: الأمّة (الوطن) إليه، وتنتهي الورقة بمقارنة بين وثيقة المدينة وبيان فتح أمريكا القائم على الإقصاء والإبادة العرقية واستنفاذ ثروات البلد المفتوح لصالح المعمر والفاتح.

كلمات مفتاحية: فلسفة، وثيقة دستور مدينة، عيش مشترك، مختلف، مؤتلف. قبول آخر.

Abstract

The medina document, or the civil constitution, is a text that Muhammad (the human prophet) founded in order to build a consensual state with yathrib as its capital, it’s not based on the centrality of religion, language or ethnicity, but on citizenship and justice between different races and religions; this document, which Muhammad (God's blessing and peace be upon him) wrote to the inhabitants of medina after the emigration from mecca, it was built on the foundations of justice. Freedoms, respect for and acceptance of the other as a human self. That Conflict is usually based on culture, identity and religion; this happens first by guaranteeing financial rights and receivables, as the Prophet's document did and bet on. this acceptance of the different other as a pattern or as an element of the Integrated Community when the need for the larger one is imposed: the nation (the homeland). In acceptance, tolerance and synergy as well, this article ends with a comparison between the city document and the statement of the conquest of America who had base on exclusion, genocide and the depletion of the wealth of the open country in favor of the perennial and the conqueror.

Keywords: philosophy, Constitution document coexistence Differentrecombinant.

* المؤلف المرسل

1- مقدمة

وثيقة المدينة أو صحيفة المدينة هي أول دستور في الإسلام، بفضله صارت المدينة المنورة يثرب، دولة توافقية أساسها العيش المشترك للأمة الواحدة على اختلاف فصائلها وطوائفها ورئيسها أو (قائدها) محمد بن عبد الله النبي البشري، ومقرها المكانيّ يثرب، يبدأ تاريخ هذه الأمة منذ الهجرة من مكة إلى المدينة، حين لجأت جماعة دينية من المستضعفين والمضطهدين إلى لواء أمة شاملة باسم الخطاب الديني الجديد، الذي يحمي الضعيف والفقير والبسطاء من النّاس على أساس من إنسانيتهم وفاعليتهم ومساهمتهم في صالح الجماعة، هذا الوطن الذي جمع الفصائل المختلفة في جغرافيا المدينة المنوّرة دون تفريق عرقي أو دينيّ، إنّما على أساس من احترام الحق في العيش والحرية في العقيدة، إذ جاء حامل النص (النّبي) موجها ومرشدا ومبلغا، ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ**﴾ **الشورى:48**،ولا حق أو سلطة له في إكراه بشري على معتقد أو توجه ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ **البقرة:272**. إنّه خطاب نابذ ناسف للمركزيات ولسلطة الأقوى، ونصّ مجسد لفاعليّة الآخر (اعتمادا على إنسانيته) في تشكيل الأنا الجماعية، وفي إقامة الدولة العادلة والأمة المتساوية الأطراف حقوقا وواجبات. أقر هذا الدستور حرية الأديان والمعتقد، والحقّ في الاختلاف، والتسامح والمساواة في الحقوق المدنية.؛ كما اتفق على ان يتحد أفراد الامة الواحدة على أعداء الدولة، إذ متى كان الخطر واقعا تعيشه الأمة وجب على المختلف ان يتحوّل الى متآلف قومي.

تأسست الوثيقة سنة 1 من الهجرة عام 623 ميلادي؛ على أرضية اجتماعية توافقية مختلفة الأجناس تشكل فسيفساءها البشرية من مهاجرين منتبذين من قبائل مختلفة ومن مستقبلين لهذه الأطياف من أصحاب المدينة (الذين اصطلح عليهم بالأنصار) ومنهم أعراق وديانات مختلفة وعقائد متخالفة، لتصبح جماعة متجانسة التطلعات في بناء دولة الحق والقانون قوامها الإنسانية والحرية في العبادة والعيش الكريم.

2 _ الموقع العقدي:

لكي نتعرف إلى موضوعات النص الوثائقي الذي تأخذ الورقة منه مبادئ العيش المشترك في السيرة النبوية كمنهاج تتبعه الأمة الواحدة رغم تعدد أطيافها وشيعها، عكس ما يحدث في الراهن من تناحر وتشاقق بين الفئة الواحدة والمعتقد الواحد، لذلك سنتعرف أولا الى نص الوثيقة التي كانت اول نص يكتب في تاريخ العرب من غير الابداع على الجدران وما كتب من نظم قبل قيام الدولة الجديدة.

_ نصّ الوثيقة:

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وواعد فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم:

«**بسم الله الرحمن الرحيم**(ديورانت، ينظر قصة الحضارة، عصر الإيمان، وول ديورانت، ترجمة محمد بدران، ج2، مج 4، أشرفت عليه الادارة الثقافية، جامعة الدول العربية، ص33_ 34.) **هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وذكر كذلك في بني ساعدة، وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني النبيت، وبني الأوس، وأن المؤمنين لا يتركون مفُرجًا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن في كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن سِلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن من دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء أو عدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعُقبِ بعضها بعضًا، وإن المؤمنين يبُيء بعضهم عن بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه، وإنه لا يجير مشركٌ مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول، مؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدِثاً ولا يؤويه، وإن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد، وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، بني النجار مثل مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم، فإنه لا يوُتغ إلا نفسه وأهل بيته. وذكر مثل ذلك ليهود بني النجار، وبني الحارث، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس، وبني ثعلبة، وبني الشطبة، وإن جفنة بطن من ثعلبة، وإن بطانة يهود كأنفسهم، وإن البر دون الإثم، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، وإنه لا ينجز عن ثأر جرح، وإنه من فتَكَ فبنفسه إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لن يأثم**

امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تُجاَر حُرْمة إلا بإذن أهلها، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو استجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد صلى الله عليه وسلم، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل إنسان حصتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكتسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم، وإن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم."(خاتم و عاطف الزين، 1983، الصفحات 47-48) هكذا ذكره ابن إسحاق(ابن هشام أبو محمد بن عبد الملك، (د . ت)، الصفحات 368 - 370).

3_ الاعتراف بالمختلف في نصّ السيرة:

في مقدمة النص تظهر الوثيقة كدستور بين طرفي هده المعاهدة الميثاق؛ لا يعلو فيها طرفٌ على طرف بجنسه أو عرقه أو لونه، أو دينه، أو جغرافيته، فالطرف المعاهد الأوّل فيها هو محمد البشري وصفته (**النبيّ) وهو القائد وأعلى سلطة في الدولة المتآلفة، من يهود ومسلمين**، وهو هنا لم يتصف بعرقه ولا بنسبه ولا بقبيلته ولا باتكائه على مجتمعه الذي انتمى إليه سابقا، محمد البشري بن عبد الله بن عبد المطلب أشرف أشراف قريش الذي كان من الممكن أن يضع اسمه على الوثيقة ويكون حقا لشرفه وقبيلته واسم عائلته أن يكون ميثاقا. كان يستطيع أن يوقع بكنيته الأمين، لكنّ المشترك الإنساني أقوى، وصفته الجامعة بين العوالم السفلية والسماوية أمتن، ولهذا فإن صفته كنبي قائد هي أوثق صفة وأصدق كنية يمكن لأطراف المدينة أن يلجؤوا إليها تحقيقا للعدل والمساواة بين أفراد الجماعة، فلا يحكم محمد البشري حين الخصومة، ولكن يحكم بسمات **النبيّ** الاسم الجامع. وما محمد إلا بشري وسيط_ في صفة نبيّ.

تأسس المجتمع المدني في يثرب من طوائف وجماعات؛ في العرق بين عربية وغير عربية، مختلف في العقيدة بين وثنيّ ومسلم ويهودي، بنو عوف وبنو النجار وبنو أوس وبنو ساعدة، وبنو ثعلبة... ومثلهم فيهم من اليهود أمة واحدة، فالمختلف فيها جار للمختلف، ويثرب محضن للوافد من المهجرين قسرا من أصحاب العقيدة المهجرين والمستضعفين؛ وتلك طبيعة الثقافة إسلامية التي تمتاز بعدم الانتماء إلى قوم" (الأوراغي، 2010، صفحة 18) وتحقق الأمن لهؤلاء بالجيرة

والنّصرة. لهم الحقوق ذاتها وعليهم الواجبات ذاتها بدون اختلاف، ولا يسأل كل بطن عربي أو مسلم أو يهودي عن دينه في هذا الكل الجامع، إلا بما اقترف كل فرد ليعود عليه ما اقترف دون تجريم للقبيلة ولا للعرق او الجماعة الدينية. إنّما يحاسب الفرد بما وتغ.(أثم وساء خلقه وأفسد كان قليل العقل في كلامه) (المجمع، 2004). وهنا تظهر قوامة القانون على الجميع أيضا وعلى كلّ الطوائف؛ فالمسؤول عن الجريمة مسؤول وحده لا تكلف الجماعة ظلمه وخطأه.

تتكون الأمة واحدة بالمتآلف أولا، ثم المختلف بما يجمع إلى ما تخالف. هناك دوائر للأمة الواحدة، هناك مشترك متآلف، ثم هناك مشترك بين المختلف يجمع على ضمان السلم والأمن والحرية والعدل في ظل الدولة، حيث تصبح حرمة النفس أولى من أي قيمة مطلقة أخرى. والحرية الدينية المكفولة عنصر يحقق القبول والعيش في سلام وأمان "**وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم" (الوثيقة)**؛ وهو ما تطلبه أي دولة متحضرة وما تقره كل مدنية، فالأمم تعمل اليوم على تجاوز محن الشقاق والتفرقة الدينية بالعودة إلى ما يجمعها لا ما يفرقها لخلق مجتمع متجانس رغم اختلافه عقيدة وطوائفا؛ فقد" استطاعت الجمهورية الثالثة في فرنسا [مثلا] تجاوز الصراع الطائفي بين الكاثوليك والبروتستانت، بتدريس تاريخ ما قبل المسيحيّة لخلق هويّة جماعيّة يتعرّف فيها جميع الفرنسيين على أنفسهم، تتعالى على الهويّة الدينيّة، دون أن تنفيها" (كموني، ط1 2014).

هناك صور كثيرة لهذا التسامح والقبول بالأديان المختلفة، فعند قدوم الوفود بعد ولاية محمد البشري وانتهاجه بمنهاج النبوة يستقبل وفد نجران من النصارى في مسجد المسلمين وتحين صلاة الوفد في الجامع النبوي، ويصلون صلاتهم متجهين الى المشرق في مسجد المدينة حتى يعترض أصحاب محمد، لكنه (محمد_ المنهاج) لا يعترض (محمد، 2014)، انما يترك الوفد يتعبد في البيت فهو في النهاية بيت الله ما يؤسس لاجتماعهم لا اختلافهم. ويقف محمد لجنازة رجل لا يعرفه من اليهود من عامة النّاس؛ لأن حرمة النفس البشرية أشد وأقوم من حرمة العقيدة المختلفة. أما عن منهاج أتباعه فيترك عمر الخليفة وصية بعده يوجه فيها إلى منهاج العدل في الأمة الواحدة حتى لا تنافر ولا تتباغض (أوصي الخليفة من بعدي بأهل الذمة). يفطن هؤلاء الرجال الحكماء الى ان السبيل الى مجتمع يسوده العدل ويخشى بعضه على بعض هو ضمان الانسجام بتحقق قبول الاختلاف.

4_النّص_ السيرة والمشترك الإنساني:

لقد أرسى الخطاب القرآني مبادئ المدنية، من خلال النظام الذي انتهجه الرسول محمد في التعامل كحامل أول لهذا الخطاب، فالنبي كشخص نموذج /قائد، يحتذى به في الطباع والخصال والمعاشرة والتواصل والتبليغ، وهو أعلى سلطة حاكمة في المدينة يتعايش مع اليهود والنصارى ويستخدمهم في أعماله ويتعامل معهم، تروي السيرة أنه يموت ودرعه مرهونة عند رجل يهودي، ويمرض خادمه وهو غلام من اليهود كان يؤدي له أعمال وخدمات فيستفقده ويزوره في بيته، ومحمد هنا ليس بشريا عاديا إنه رئيس لدولة المدينة الذي يزور واحدا من مواطني دولته وهو مواطن مختلف الديانة لكنه المشترك في المواطنة على أساس من التواضع، إنه نظام مبني على التعايش والاختلاف في الدين والرأي والأعراق والمستويات الاجتماعية : "وهو مجتمع لا يخلو من المغايرة الاجتماعية/ العقدية، فقد جسدت السيرة العملية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي أرسى قواعد أول مجتمع متنوع دينيا، من خلال وثيقة المدنية التي نصت على أن المسلمين واليهود يمكنهم تشكيل مجتمع واحد، وأمة واحدة، مع بقاء كل طرف على دينهم ومعتقداتهم، على أساس من الحرية والديمقراطية التي من خلالها عبروا عن حقّ المختلف والتزامه بدينه وقد كان مقدرا لهذه الوثيقة الدستورية المدنية؛ **الأولى من نوعها والمعرفة بها عند العرب**(الباحثة)، أن تحكم العلاقة بين المسلمين واليهود لولا أن الطرف الآخر وهم اليهود نقضوها، وأداروا ظهورهم لها." (الخشن، الاسلام والعنف، قراءة في ظاهرة التكفير، 2006).

فحياة الرسول العملية كانت تطبيقا للنهج النصي الذي أسس للاختلاف والتعايش، ومسرحا لتقديم الخطاب المحقّق لذلك وتمثيله على الواقع. فقد ضمت هذه الوثيقة الدستور قيم المدنيّة والحق في الاختلاف والعيش المشترك واحترام الإنسان في الوطن الواحد من حيث إنسانيته، في السنة الأولى من الهجرة أي في أول قيام للمدنية الإسلامية (52) اثنان وخمسون بندا، (25) خمسة وعشرون بندا منها في المجتمع الاسلامي، أمّا الباقي ففي ترتيب علاقة هذا المجتمع مع بقية أصحاب الأديان والعقائد الأخرى ممن يرتبط بالجوار أو المرتبط بالوطن (فالمواطنة تفرض نسيان الاختلاف وتجاوز التعارض عند حاجة الوطن) أو المتاخم للجغرافيا، وترتيب العلاقات التي بين الديانات والعلاقات الانسانية عامة؛ وكلها مبنية على العدل واحترام الحريات. ورتبت هذه الأولويات في وثيقة التزمت بأولويات الخطاب الجديد، وبتنظيم وتحقيق التوازن بين النص_ القانون أو الدستور وبين الإنسان.

_ فقيمة الإنسان فيما يملكه من القيم، والعدالة هي الفضيلة الأولى التي من شأنها أن تمنحه شعوره بوجوده الأصيل الذي يكون فيه هو الحاكم وفي نفس الوقت هو المحكوم كما يقول جول رولز (بنتزار، جوان 2019)، ولهذا فإنّ نصّ الوثيقة يجعل المواطنين متساوين في الحقوق، والواجبات اتجاه الوطن الذي يعيش فيه الجميع؛ " **وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم" (الوثيقة)**، كما أن على الجميع نصرة وحماية الوطن دون تحديد لهوية مؤتلف أو مختلف؛ لأن ما يصيب الفرد أو الجماعة في الوطن اواحد ينسحب على من يعيش فيه، وان يتفق الأطراف على الوقوف معا في النصرة وفي مواجهة عدو الجماعة والمجتمع: "**وأن بينهم النصر على من داهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه**"(ابن_اسحاق).

5_ بيان المدينة وتاريخ بيانات الفاتحين:

المطابقة والاختلاف:

في تاريخ البشرية الطويل والممتد فتوحات وحملات لاستيطان جغرافيا مخالفة، فقد قامت الكولونيالية عبر التاريخ على الاستضعاف والانتباذ وإقصاء المستعمر، واعتباره مهملا يصل درجة العبيد؛ وتشير بعض بيانات الفاتحين أو المستعمرين إلى اعتبار اهل الجغرافيا المفتوحة كما يسميها هؤلاء أقل درجة من الفاتح، وأدنى قيمة ويتم الارتكاز في ذلك على الخطاب اللاهوتي، الذي يخول لهؤلاء بفعل أوامر من البابوات_ العصوات الملكية والاستعمارية ليعتبر الفاتح فيها مواطني الأراضي المستغلة والمستنزفة أقل درجة وفي حكم العبيد أحيانا كثيرة والتاريخ المعاصر للكولونيالية شاهد على ذلك، فتتحقق الإلغائية والإقصائية حد التقتيل والتهجير والسبي والنفي وأحيانا الإبادة كما حدث مع عرق اليهود في أوروبا أو الهنود الحمر السكان الأصليين لأميركا عند فتح أمريكا، وسناتي على ذكر البيان ومنهج الخطاب فيه المبني على الترهيب وسلب الحق باسم الميثاق الإلاهي.

إن الأصل في الاختلاف الصراع والنزاع لقيام الاختلاف على المغايرة والتمايز، وحتى تحقق المدنية حداثتها وتطورها على الكل أن يتماثل ويشكل المجتمع المتكامل، من المؤتلف والمختلف في هذا المجتمع؛ لا سيما إن كان هذا المخالف مجرد أقليات تعيش في كنف أمة كبيرة متماثلة. ونعود إلى بيان المدينة الذي أحق فيه محمد كقائد ونبيّ قيمة الأقليات الموجودة في المدينة كأفراد ثم كجماعات تشكل بناء الكل، محترما ومحقا احترام خصوصيتها وخصائصها وذمتها المالية وحريتها العقدية، حكم راشد يتفوق في زمن ماض ويتقارب وربما يعلو مفهوم الديمقراطية "التي تنشأ من اختلاف الآراء وتفرض الخضوع لرأي الأغلبية، لا بدّ لها من احترام وتحقق العدالة للفئة التّي لا

تتبنّى نهج أو طرح الأغلبية. لأنّ تعبيرها عن رفضها قد تم من خلال الأسلوب الديمقراطي لذلك يجب احترام قناعات الأفراد قبل الجماعات" (المحمداوي، 2010).

إلغاء مصالح الذات وبذلها في سبيل الجمعي، حيث تلغى الاتجاهات والمؤسسات الفكرية والدّينية المتخالفة كمغاير لحساب المؤتلف الجمعي الذي يجمع ولا يفرق بذل النفس والمال لمصلحة الوطن.

رسّخت الوثيقة لمبدأ الجامع والمشترك وتحقيق ذلك رغم الاختلاف البيّن في العقيدة والدين والطّائفية والعرفيّة والذّاتية حيث يذوب الكل ذلك في مصلحة عالم متّزن تتحقق فيه المساواة من حقق تقبل المغاير وتمايزه واحترامه، ثم من تحقيق الانسجام الجمعي والجماعي والاجتماعي بفضل هذا المختلف.

فتحقيق التكامل يبدأ بالاعتراف بالأنا من حيث هي نحن، لتجانب التصادم او العيش في الرهاب والقلق من وجود الآخر ، إن تقبل الآخر على اختلافه وعلى انه ليس ذاتا وليس نحن، ووجوده هو من اختلافه، كفيل بأن يجعل هذا العالم الخائف القلق والمتوتر آمنا بمسالمته خاصة إذا تعهد كل فرد في الأمة بحقوقه وأدى ما عليه إلى غيره؛ "فالحق القانوني هو الذي يضمن حرية الأفراد واستقلالهم الذّاتي، لأن الفرد يتقاسم مع الآخرين مميزات الفاعل الأخلاقي المسؤول عن أفعاله بحيث يتمتّع بحريته المعترف بها اجتماعيا والمضمونة قانونيّا" (المحمداوي، 2010).

شكلت وثيقة المدينة القائمة على حق العيش المشترك بين ساكنة مجتمع يثرب في القرن 6 ميلادي أساسا لقيم التقبل واحترام المختلف وحرية الدين والاعتراف بالمغاير كجزء لتحقيق العيش والسلم والامن في الوطن الواحد. حتمية العيش المشترك لإلغاء وتقبل الفواصل الإثنية والعرقية والطّائفية والثقافية. كما تأسست على الاعتراف بالآخر من خلال تقبله في نسيج المجتمع، " فالاعتراف المتبادل كفيل بوضع حدّ للصراعات الاجتماعية القائمة على السيطرة والهيمنة والظلم الاجتماعي وبالتالي يستطيع الأفراد تحقيق ذواتهم" (المحمداوي، 2010). هناك التباس الاختلاف والذي يرسم له حدود لا يتجاوزها الطرف تتحقق بالتسامح والقبول خشية الوقوع في الصراع مع المغاير في الوطن الواحد أو في العالم المشترك ، "التسامح بما هو سياسة مؤسسية هو مجموعة من القواعد تنظّم خشية من الجزاءات" (هانتادي، 2009). لأن أي بنية مجتمعية تقوم على المختلف لابد أن تبنى على نوع من النزاع وإن كان مضمرا أو مؤجلا إلى حين. ولهذا فإن الدولة التي تقوم على منهج الاعتراف بالآخر والتسامح في أن يؤدي المغاير ما يتحقق به اختلافه هي دولة تؤسس لمناعة اجتماعية ضد الهزات والخلافات والصراعات. ولعله ما جعل محمد القائد الذي جاء ليبني

دولة على أساس خطاب لاهوتي، يتجنّب الاقصاء وانتباذ الآخر من دولته. وإن كان مغايرا عقديا؛ باعتبار كل جماعة نسقا مغايرا يحافظ في البيئة التي يتعايش معها على تمايزه، كما يحافظ على قيم العيش المشترك مع "إلزامية احترام النسق المراقب" (لومان، 2010). أو المهيمن خاصة إذا كان هذا النسق السياسي أو الاجتماعي محققا لكفالة بقية الأنساق، يتواصل معها بما يحقق الانفتاح والانغلاق لكليهما فيحافظ كل على خصائصه ومميزاته وحسب" تعبير **لومان** يتم التواصل داخل كل نسق بناء على منطق ذاتي مستقل عن الأنساق الأخرى" (لومان، 2010).

إن الحضارة الامريكية بماهي هي أمة تأسست على مجموعة أنساق اجتماعية وسياسية وهوياتية مختلفة؛ قامت في حقيقتها على إبادة عرق بأكمله، لتكون امة متخالفة الاجناس والأعراق حمل الفاتحون الذين يهللون الآن للحرية والعدالة وقبول المختلف واحترامه على تاريخ من الإبادة والعار، إذ حمل هؤلاء الفاتحون وعلى رأسهم كولومبوس، بيانا لإقامة دولة دينية_ لاهوتية، وحين يكتب للملك في اسبانيا يقول: "إنه بنجاح حملته فإنهما ينجحان في تحويل جماهير غفيرة إلى ديننا المقدس، في الوقت الذي تكسبان فيه لجميع شعوب إسبانيا مقاطعات وثروات عظيمة" (ابراهيم، 2003)، لتحمل هذه الحملة التي من شأنها أن تحمل الحضارة بيانا يجعل من الهنود عرقا لا دينيا أدنى؛ إذ لم يتم اختزال الهنود الى عرق ادنى قد تم بمعزل عن الرؤية الدينيّة والسّياسيّة التّي توجه عمل الفتح إنّما كان ذلك الاختزال نتيجة مباشرة من نتائج علاقة الفاتحين بالمفتوحين. إذ لم يمر وقت قصير حتّى صدرت الوثيقة المعروفة بـ requerimiento وهي عبارة عن خطاب_ وصية موجهة إلى سكان البلاد المفتوحة، وقد صاغها الحقوقي الملكي بالاثيوس روبيوس .... مضمونها: ايراد تاريخ موجز للبشرية تتمثل ذروته في ظهور يسوع المسيح الذي يجرى اعتباره (رئيس الجنس البشري) ونوعا من عاهل أسمى يخضع لسلطاته الكون كلّه، وبمجرّد نقطة الانطلاق هذه فإن الأمور تتابع على وفق الرؤية اللاهوتية_الكنسية للتاريخ" (ابراهيم، 2003)؛ وتظهر حدية التعامل مع البلد المفتوح في هذا الموقف التاريخي مقارنة بالموقف المبني على قيم التعايش وعدم الإقصاء في الوثيقة النبوية التي لم يأت في نصها تمجيد لمحمد النبي، ولا محاولته لتهميش ونبذ الطائفة والجماعة المختلفة من تأسيس الدولة الإسلامية الجديدة والقائمة في منهجها على النص والخطاب القرآني.

ثم تضف هذه الوثيقة الفاتحة كيف انتقلت السلطة من يسوع إلى البابوات وكيف سلم البابوات الجغرافيا الأمريكية للإسبان كنوع من الفتوى الدينية فتقوم الدولة المترامية الأطراف على التوارث الديني المنتبذ للجنس والعرق المخالف "فقد نقل يسوع سلطته الى القديس

بطرس ونقلها هذا الى البابوات الذين خلفوه وقد قام احد البابوات الأخيرين بمنح القارة الامريكية للاسبان وجزئيا للبرتغاليين..." (ابراهيم، 2003). أما إذا لم يقبل السكان الأصليون هذا العرض المبني على سلب بلادهم ومنحها لفئة أو جماعة أخرى على أساس ديني فإنهم مجابهون بالغزو والتنكيل وسبي أولادهم ونسائهم واختزالهم إلى مرتبة العبودية كما تقر الوثيقة السابقة بذلك.

حين نستظهر قيام الحضارات الكولونيالية المختلفة والمآسي التي تحدثها ما يسمى بالفتوحات الحاملة للديمقراطية والخير والتطوير، والتي قامت في حقيقتها على وثائق وبيانات لاهوتية، تجعل من الشعوب المستعمرة أو البلاد المفتوحة ملكا مشاعا للفاتح، ويختزل أصحابها إلى عبيد وإلى عرق أدنى. أمام هذا تظهر الوثيقة النبوية احتراما وتسامحا لكل أطياف المجتمع الذي يريد بناءه في المستقبل والذي قام في حقيقته على الخطاب القرآني، لكنه خطاب منصف للمركز والتخوم، لم تأخذ فيه طائفة مزايا على حساب طائفة أخرى، كما أن الفتح أو التجانس الحاصل بين الأطراف المواطنة لم يقم على العنف إنما المسالمة والتآخي. **وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ (الوثيقة).** فهي دولة أحد دعائمها الكبرى القسط_ العدل بين الجماعة. ومن ذلك احترام الذمة المالية لكل طائفة **وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، الوثيقة.**

فليس من حق الطائفة الأغلبية أن تسلب الطائفة الأقل حقها في اقتصادها المالي الذي أقامته لذاتها. وإذا تحقق الأمن الاقتصادي تحقق الأمن والسلم الاجتماعي. وبخلاف الفاتحين عبر التاريخ، فإن وثيقة أو دستور المدينة أقرت سواسية وتساوي المواطن في الدولة الإسلامية الجديدة: **وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين.** لتتكئ البنية الجماعية على مجموعة من الأنساق التي رغم انها تختلف عن بعضها في خصائصها الدينية والعرقية، إلا أنها تنتمي إلى وطن واحد، تتفق فيه هذه الأنساق/ الجماعات في النهاية لتشكل ذاتا من المختلف تقوم كجسم مناعي ضد أي خطر يهدد الدولة والمجتمع، الأمر الذي لم تصل إليه بيانات الفتوحات السابقة ولا اللاحقة من احترام للأقليات والأديان وتجاوز العنصرية والتمييز بين مواطني الأمة الواحدة بل لم تتوصل إليه الدساتير والوثائق المدنية إلا في القرن العشرين بما فيها ميثاق الأمم المتحدة الضامن لأحقية الاختلاف والتمايز والمواطنة للأقليات العرقية والإثنية والعقدية. نشير هنا أيضا إلى مقدار التسامح والتجاوز الذي بني عليه خطاب فتح مكة الموجه لجماعة من المناكفين الناكثين لعهود السلم التي عقدتها قريش وحلفاؤها مع محمد وحلفائه، ثم تخلف العقود والعهود بمجموعة اغتيالات وعمليات قتل قضت على معاهدات التعايش والمسالمة؛

فهذا الخطاب ظهر فيه محمد المنتمي للعشيرة/ اللامنتمي دينيا، مخاطبا صاحب سلطة متسامحا محترما للرموز السابقة في جغرافيا مكة وإن كانت مخالفة له.

6-خاتمة

ذكرت الوثيقة في أكثر من موضع فكرة التآلف في الحرب رغم الاختلاف في الدين، ذلك أنه وكما يرى هنتجتون: أن الحروب رغم ما تقود إليه من دمار وخراب، إلا أنّها تؤدّي دورا إيجابيّا من حيث أنّها تساعد على الاتّحاد الهويّاتي بين الأمم خصوصا عندما يكون العدوّ ينتمي إلى هويّة مختلفة... فالحرب تصنع الدولة وتصنع الأمم أيضا(بتصرف)" (هنتغتون، 2005) . وهو ما وجهت إليه الوثيقة الدستور أن لكل نسق اجتماعي هويته المخالفة للآخر لكنهم في الوطن سواسية اتجاه الخطر والعدو المتربص بالدولة أو الأمة.

قائمة المصادر والمراجع

1. _ القرآن الكريم
2. ينظر قصة الحضارة، عصر الإيمان، وول ديورانت، ترجمة محمد بدران، ج2، مج 4، أشرفت عليه الادارة الثقافية، جامعة الدول العربية.
3. محمد الأوراغي . لسان حضارة القرآن. الدار العربية للعلوم منشورات الاختلاف. الأمان. لبنان. الجزائر. المغرب. ط1. 2010. ص 18.
4. نص الوثيقة.
5. سعد كموني، العلمنة والأسلمة نعم .. ولكن، م ث ع بيروت لبنان، الدار البيضاء المغرب، ط1 2014.
6. حسين الخشن، الاسلام والعنف، قراءة في ظاهرة التكفير، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1 2006.
7. عبد القادر بن ترّار، أفق العيش المشترك من خلال نظرية العدالة لجول رولز، مجلة النّاصرية، مج 10، ع1، جوان 2019.
8. علي عبود المحمداوي، الفلسفة الغربية المعاصرة، موسوعة الأبحاث الفلسفية، صناعة العقل الغربي، من مركزية الحداثة إلى التشفير المزدوج، مجموعة من الأكاديميين العرب، إعداد: علي عبود المحمداوي، تقديم علي حرب، دار الاختلاف، ضفاف، الأمان الجزائر لبنان، المغرب، ج1 و2، ط1 2013.
9. عبد الله إبراهيم. المركزية الغربية، إشكالية التكوّن والتمركز حول الذّات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط2، 2003.

10. نيكولاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، تر يوسف حمدي حجازي، منشورات الجمل، بغداد، ط1، 2010.
11. صمويل هنتجنتون، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة حسام الدين خضور، دار الرأي، دمشق، ط1، 2005.
12. محمد الصوباني، السيرة النبوية كما جاءت في الاحاديث، العبيكان، الرياض السعودية ج3، ط5، 2014.